بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد 29/6/2014 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة دعوت ربي

من معاني الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

مطرف بن الشخير رحمه الله تعالى هو رجل تابعي ابن صحابي، وكان رجلاً علماً ثقةً، قالوا: بأنه مجاب الدعوة، يقول مطرف: ((تَذَكَّرْتُ مَا جِمَاعُ الْخَيْرِ فَإِذَا الْخَيْرُ كَثِيرٌ: الصَّوْمُ وَالصَّلَاةُ وَإِذَا هُوَ فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذَا أَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ تَسْأَلَهُ فَيُعْطِيَكَ، فَإِذَا جِمَاعُ الْخَيْرِ الدُّعَاءُ)) [الزهد لأحمد بن حنبل]، فما هو أكثر عمل يجمع الخير؟ أن تطلب من الله تعالى.

ويقول: ((نَظَرْتُ فِي بَدْءِ هَذَا الْأَمْرِ مِمَّنْ هُوَ؛ فَإِذَا هُوَ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَظَرْتُ عَلَى مَنْ تَمَامُهُ؛ فَإِذَا تَمَامُهُ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَظَرْتُ مَا مِلَاكُهُ؛ فَإِذَا مِلَاكُهُ الدُّعَاءُ)) [المجالسة وجواهر العلم].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**» [الترمذي].

مركز هذا الدين الدعاء، وهناك حديث عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**» [أحمد].

الصلاة عبادة، والصوم عبادة، والصدقات عبادة، وبر الوالدين عبادة، ومساعدة الخلق عبادة، والإحسان إلى الناس عبادة، وتبسمك في وجه أخيك عبادة، لكنَّ العبادة لها مركز، مركزها الدعاء، من أجل هذا قال الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر 60]، سأعيد قراءة الآية مرة ثانية تتبعوا الكلمات ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ مطلع الجملة ﴿ادْعُونِي

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ المتوقع أن يقول: (إنَّ الذين يستكبرون عن دعائي) لكنَّ الله تعالى قال ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ».

لماذا مركز العبادة ومخ العبادة هو الدعاء؟

لأنَّ الدعاء فيه اعتراف بالفقر، فعادة الرجل الغني أنه لا يسأل، الذي يسأل هو الفقير، والدعاء فيه اعتراف بالضعف، عادة الرجل القوي أنه لا يسأل أحداً المساعدة؛ لأنه قوي، لكن الضعيف هو الذي يحتاج أن نعينه، عادة المحتاج هو الذي يسأل أما غير المحتاج لا يسأل، فأنت عندما تسأل رب العالمين، وتدعو رب العالمين، فأنت تعترف باللاوعي أنَّني يا رب فقير إليك، وأنني يا رب محتاج إليك، وأنني يا رب ضعيف بين يديك، وأني يا رب مسكين من مساكينك، فأنت تعترف بحقيقتك، وهذا يا إخوة الإيمان ليس تصنعاً، بمعنى أنا غني لكن سأقول الآن أنني فقير، لا بل أنت فقير بكل ما تعني كلمة الفقر، ببساطة من يحرك قلبك الآن؟ هو، لو أعطى أمراً للقلب أن يقف وائت بكل المال الذي تملكه ودعه يشغل لك القلب، ببساطة السيارة العصبية التي تجري في أعضائك هو الذي يحركها، فلو أعطى أمراً لها بالتوقف، وهات كل ما تملك من مال، وكل جاهك وكل معارفك، وكل علاقاتك الاجتماعية، وعلى هاتفك (الجوال) عندك يوجد ألفا اسم اتصل بهم ليحركوا لك السيارة العصبية! أنت فقير، حقيقة أنت فقير، أنا محتاج إلى الله، حقيقة أنا محتاج إلى الله عز وجل، لذلك الصالحون قالوا: ((إنَّ لله تعالى تجلي إيجاد)) أوجدك بطريقة عجيبة.

عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللهُ: بَنِي آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ» [أحمد].

شيء عجيب كيف يتحول إلى خلق متكامل؟! كيف يتحول إلى أحسن تقويم؟! ((إنَّ لله تعالى تجلي إيجاد وتجلي إمداد)) في كل لحظة ربنا يتجلى عليك، وإذا قطع تجليه عنك الآن تسقط أرضاً، فالدعاء يا أيها الإخوة فيه اعتراف بحقيقة العبد وحاجته إلى ربه، لذلك كان الدعاء مركز

العبادة، والعبد مركزه أن يعترف لسيده أنه محتاج إليه، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، جرت العادة أنك لا تسأل فقيراً مثلك، بل تسأل غنياً، وأنَّ الجاهل لا يسأل جاهلاً مثله، بل يسأل عالماً، وأنَّ الضعيف لا يسأل ضعيفاً مثله، ولكن يسأل قوياً، فأنت عندما تتوجه إلى الله بالدعاء، أنت تعترف له بأنه قوي، وتعترف له بأنه غني، وتعترف له بأنه قادر، وتعترف له بأنه معطي، وتعترف له بأنه متفضل.

مركز الدين اعتراف بعبوديتك واعتراف بربوبيته، كل من أيقن أنَّ الربَّ ربٌّ وأنه عبد في مملكة هذا السيد ملك الملوك، فقد دخل في هذا الإسلام، لذلك كان الدعاء مخ العبادة.

الدعاء لغة: هو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك.

والحقيقة نحن بدعائنا والتجائنا إلى الله نستميل عطف الله عز وجل علينا، ونستميل فضله علينا، ونتوجه إليه أن ينظر إلينا ليرحمنا.

وقالوا الدعاء لغة: دعا الرجل دعاءً ناداه، فأنت بدعائك تنادي على الله.

يا إخوة الإيمان، نحن بحاجة أن نظهر هذه العبودية لله عز وجل إذا كنا مجتمعين، أو كنت وحدك في بيتك.

قال الطبري في التفسير: ((عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، ونظرَ رَسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعِدّتهم، ونظر إلى أصحابه بَيِّفا على ثلاثمائة، فاستقبل القبلة، فجعل يدعو يقول: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض!**»، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك يا نبي الله، بأبي وأمي، مناشدتَك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك! فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال 9])).

لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم عبد ويريد أن ينادي على سيده ليكون معه في محنته التي نزلت به.

الدعاء لغة: النداء، ودعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته، وكل هذه المعاني: المناداة، والصياح، واستمالة الشيء ليكون رفيقاً بك، كلها تخدم المعنى الشرعي للدعاء.

أسوق لكم هذه التعريفات حتى إذا جلسنا ندعو الله، تستحضر هذه المعاني في خلاياك أنك تنادي على الله، أنك تستميل عطف الله عز وجل، أنك تصيح عليه أن يكون معك.

الدعاء اصطلاحاً: هو استدعاء العبد لربه العناية واستمداده منه المعونة.

أنت تستدعي من ربك أن يعتني بك.

وقالوا الدعاء اصطلاحاً: هو إظهار الافتقار إلى الله والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية.

وقالوا الدعاء: هو الرغبة إلى الله عز وجل.

وقالوا الدعاء: هو تعبير عن شكوى متألمة، أو صرخة قلق، أو طلب استغاثة.

ألا يؤلمك شيء، ألا يزعجك شيء، كيف تعبر لربك عما فيك؟ بالدعاء.

وقالوا الدعاء: هو ارتفاع بالنفس نحو الله، وعبادة للذي منحنا الحياة، قال الله تعالى في وصف سيدنا زكريا عليه السلام ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم 3].

قال ابن كثير في تفسيره: ((وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك)).

نحن الآن في رمضان، وفرصة كبيرة أن تهتف بربك، أن تهتف به ليلاً وأن تهتف له صباحاً، أن تكون في كل ساعاتك متوجهاً بكل خلاياك إليه لتنادي عليه؛ لأنه سيد ولأنك عبد ولأنك محتاج إليه، ولأنه قادر أن يعطيك.

قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة 16] تكرار التاء يفيد تكرار الابتعاد عن المضاجع قال الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت30] لم يقل (تنزل) بل قال ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ تكرار التاء يفيد تكرار التنزل، والنزول يعني الملائكة لا تنزل مرة بل تنزل مرات، وربنا قال في وصف المؤمنين ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآن

تجده يصلي التراويح، ثم يذهب إلى البيت ليجلس قرابة النصف ساعة، ثم ينام ساعة فيحدث مجافاة وبعد بين جنبه وبين مضجعه، يصلي ركعتين ثم يعود للنوم، ثم يقوم ينادي على ربه قرابة ربع ساعة، ثم يعود للنوم ثم يقوم على السحور، وبعد السحور ينسل من بين أهله، أين هو؟ فإذا هو ينادي ربه، يهتف بربه، يدعو ربه. ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ ماذا يفعلون؟ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة 16].

قال الألوسي في تفسير هذه الآية: ((إشارة إلى سهرهم في مناجاة محبوبهم، وملاحظة جلاله وجماله)).

ونحن في رمضان وقد نزل بنا ما نزل، ونحن بالأصل عباد مفتقرون إلى رب العالمين، تعالوا نصدق في اعترافنا لسيدنا بأنه سيد، وفي اعترافنا له أننا محتاجون إليه، فإذا رآنا مضطرين مفتقرين متذللين منكسرين أعطانا، سيدنا عمر يقول: ((إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُمُ الدُّعَاءَ، فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ)) [الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي].

والله يا إخوة الإيمان لا يوجد أحد سأل الله عز وجل سؤالاً إلا أعطاه، لم أرَ أحداً لا صالحاً ولا طالحاً، لا تقياً ولا غير تقي سأل الله شيئاً إلا أعطاه، المشكلة ليست في العطاء المشكلة في السؤال، أناس لا يسألون، وأناس لا يعلمون من السؤال إلا ما يملؤون به أجوافهم وما يكتسون به على أبدانهم.

دروس ثلاثين إن شاء الله سنعقدها في رمضان عنوانها (دعوت ربي) لنتحقق بعبوديتنا لله عز وجل، ولنحقق فينا اعترافاً بربوبية رب العالمين، ولعلنا نتعلم من القرآن ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم كيف نسأل ربنا.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.